

من الاستشراق الى الاستغراب ارادة القوة والارتكاسية " في شعر الجاهلي " نموذجاً

أ. عبد الكريم عنيات / جامعة سطيف 2

فاتحة:

نطلق من مقولة مفكر فرنسي اشتهر في حقل الفلسفة، لكنه مجاز باستحقاق في الأدب الفرنسي ومنح نوبل للأدب 1928 بالنظر إلى لغته الجميلة وأسلوبه الذي يشبه الرجال في الفخامة والوسامة والقوة. هذه المقولة هي لهزري (1859-1941مفكر الديمومة ومفلسف Henri-louis Bergson) برغسون الروحانية في الحياة، مفاد هذه المقولة : أن الذي يعرف إتقان وعمق لغة شعب . Celui qui connait à fond la langue et la littérature d'un peuple ne peut pas être¹ وأدبه، فإنه لا يمكن البتة أن يكون عدوه بصورة تامة . والسبب الأكيد لهذا، هو أن المدخل اللغوي يمهّد للفكر أن يغترف الأدب والثقافة وروح الحضارة الظاهر والباطن . ونحن نعلم علم اليقين أن المدخل الاستشراقي للحضارة العربية الإسلامية كان لغويا بالحصر وبالامتياز، مما يحيلنا إلى النتيجة البرجسونية إحالة تريب لا إحالة تصديق.

إن الحديث عن النوايا هو حديث الهواجس والتزقبات العصائية . مثلما أن الحديث عن النتائج والأفعال المتمثلة للفكر والعيان هو حديث العلم والمنطق . وفي موضوع الاستشراق في الأدب العربي، نركز النظر إلى نتائج الدراسات التي أنجزها كبار المستشرقين في دراساتهم التأسيسية والتقدية من حيث هو مدخل العلم الموضوعي المبتعد عن الهيام الذاتي والتبجيل الشخصي - القومي . وتركيز دوافع الاستشراق وعمله

¹ -Henri Bergson : Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Librairie

Félix Alcan, Paris, Onzième édition, 1932, p309.

في بؤرة واحدة هو ضرب من التعنت الذي يقصى المتعدد ويؤسس للموحد الأوحد، فهناك دوافع معرفية خالصة متفتحة على كل النتائج المحتملة كتعبير عن إرادة العرفان، مثلما هناك دوافع ايديولوجية تحتوى في داخلها أجزاء متعددة مثل الدينية والاستعمارية الاستغلالية أو الإستقوائية...الخ كتعبير عن إرادة القوة والهيمنة.

لكن، وبالنظر إلى التكوين العلمي لكبار المستشرقين، وبالنظر إلى المراتب العلمية التي بلغوها. وبالنظر ثالثا إلى موقفهم من تراثهم هم بالأساس. فإن نعتهم بالمتعصبين واعتبارهم " خدام السياسة والعقيدة"، هو في اعتقادنا ضرب من النكران المطلق لحقائق مختلفة ومتغيرة. وهذه القناعة متأدية من الاعتقاد الراسخ بأن التكوين العلمي الصارم في علميته بالنسبة لأي إنسان، لا يمكن ان يختلف فقط باختلاف الأعراق والأقوام والجنسيات والأزمان. إن الشرط العلمي يخلق بالضرورة عقولا متناسقة ميالة إلى التقيد والموضوعية والوضعية. فكبار المستشرقين قد وقفوا موقفا متماسف تجاه ثقافتهم بغية درك الحقيقة الموضوعية البعيدة عن التزلف والتمجيد، فما الذي يمنعهم كم التماسف الموضوعي تجاه الحضارة العربية بالإجمال والأدب العربي الذي يمثل البوابة الكبرى والضرورية لكل استشراق ممكن أو لكل مشروع استشراق ؟ فلئن كان لكل قضية قطبين قيميين ممكنين، فإن في حالة الاستشراق تتوحد القيمة الإيجابية والسلبية في قيمة واحدة تتلخص في كون الاستشراق مفيد للفكر العربي سواء القادح أو المادح على السواء، وما تأملات " مالك بن نبي " العميقة والمحرضة على التعميق والتريث إلا مثلا جميلا وجاد على ذلك عندما قال أنه " يتبين لنا أن الإنتاج الاستشراقي، بكلا نوعيه كان شرا على اتع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة

حرمان سواء في صورة مديح وإطراء (...) أو في صورة التنفيد والإقلال (...) وعلى كل، فان أمكننا أن نصرح بأننا نجد على كل وجه جانبا ايجابيا في هذا الاستشراق،

فإننا لا نجد في صور المديح، بل في صور التفنيد¹. "والمسألة الأكدية هي أن ما قيل لا يعني إطلاقاً تمجيد الدراسات الاستشراقية بالمطلق، لأن هذا الحكم يمثل العمومية والتعميم الذي لا يستسيغه العقل العلمي، لأن هناك طبقات للمستشرقين (القدامى والمحدثين) ، كما أن هناك أنواع منهم) القادح والمادح إلى جانب المتخصصين (المستشرق اللغوي، الديني، السياسي... الخ). (بل فقط نود أن يكون هناك نقد ابستمولوجي للاستشراق مرفوق بدراسة استبدالية بدل الركون إلى الاطمئنان وتجميع الوعي المزيف الذي يشكل تمجد الذات والتراث بالمطلق وبأي ثمن، وإنما هنا لنشر إلى طريقة تعامل محمد أركون مع المنتج الاستشراقي في الفكر الإسلامي من خلال الانتقال من الاستشراق الكلاسيكي إلى الإسلاميات التطبيقية أو "الإسلامو-لوجيا" على حد نخته المستجد². Islamologie

إننا نلاحظ أن المتحفظين على الاستشراق من حيث المنطلقات والمناهج والنتائج، إنما ينطلقون من ظاهرة أن الهجوم على الإسلام - كديانة وثقافة ونظم ومؤسسات - كان دوماً من طرف المستشرقين بما هم أجانب من الناحية الثقافية والميتودولوجية. لكن ماذا ننتظر من عالم خالص في علميته ونزيه في عقليته وصارم في مبادئه؟ أي ملتزم بمبادئ الروح العلمي ويدرس بطريقة علمية فكر ما. إن التمجيد الذي نلاحظه لدى بعض المستشرقين للتراث العربي الإسلامي ليس إلا انعكاساً لمزاج شخصي، أو استجابة لتحريض أو مصلحة ما نحن أهل الشرق نرفض أن نكشفها أو نتجاهلها. نحن لا ننفي أن يكون المفكر وسيلة في

¹-مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 25 وما تلاها - بيروت، الطبعة الأولى، 1969، ص17

²- محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني - كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة. للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2000، ص67

يد سلطة ما، وهناك الكثير من الدراسات التي بينت علاقة المثقف بالسلطة إجمالاً، تلك العلاقة التي وإن خفت على الأغلبية من الناس، إلا أ موجودة وقوة في كل آلات. السلطة هنا لا تدل فقط على سلطة السياسية والإيديولوجيا، بل السلطة الدينية وسلطة القديم وسلطة التيار المشترك، إلى جانب سلطة المال... الخ. لكن الهجوم على الثقافة الإسلامية والعربية يجب أن نأخذه نحن العرب المسلمين مأخذاً ايجابياً منتجاً؛ أي كتحرير للتجديد والتفكير. وإن نحن

طرحنا السؤال التالي: هل يمكن أن يكون أدب عربي معاصر دون استشراق؟

هل انفصلت يوماً المسائل المطروحة في الأدب العربي الحالي عن الاستشراق سواء في المنطلقات، أو المناهج أو حتى الفرضيات والنتائج؟ إن الإبداعات العربية في Perspective مجال القصة والشعر والنقد الأدبي والرواية هي إنتاج منظوري استشراقي بصورة مباشرة تقبلية وفعلية أو غير مباشرة احتجاجية أو على شكل رد فعل. وهذا التقرير ليس نتيجة نزوة حينية مؤقتة، بقدر ما هي خلاصة توصل إليها العديد من المتخصصين في علاقة الاستشراق بالأدب العربية المعاصر ولغته. يقول الدكتور " أحمد سمايلوفيتش "مستنتجاً في مقدمة أطروحته، والذي أنجز دراسة مطولة تعكس مجهوداً جباراً في هذا الموضوع " :جل المشاكل التي ظهرت في ميدان الفكر والأدب العربيين المحدثين لم تكن إلا نتيجة لأثر الاستشراق فيهما معا¹. وفي هذه النتيجة تقرير واضح يعكس العلاقة الوطيدة بين الأدب العربي المعاصر في كل أنواعه وأصنافه بالدراسات الاستشراقية. مما يجعلنا نعتقد بأن الاستشراق ليس قضية هامشية أو كمالية في الأدب العربي الحالي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التفكير معزل عنه.

1- أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.

لكن وبالنظر إلى شساعة مجالات الآداب العربية المعاصر وتكوش تخصصا، فإننا ملزمون بأخذ مجال واحد فقط من أجل استجلاء وجه العلاقة و "كميته" بين الاستشراق والآدب العربي المعاصر. وهذا هو دراسات النقد الأدبي.

وبالتحديد علاقة نظرية طه حسين التي أثارت ما أثارت من النقاش والجدل الفكري وحتى السياسي، بالمنطلقات الاستشراقية ومناهجها. وسؤالنا الذي يمثل وضعية الانطلاق هو كالتالي: هل الدراسة التي أنجزها الدكتور طه

(1973 حول مشكلة الشعر الجاهلي تمثل " يدا استشراقية - " حسين 1889)

مفرضة وموجبة أم تعكس الوعي الضروري لإنجاز الحداثة المطلوبة في

العالم العربي - الإسلامي ؟

أولا - وقفات تحديدية:

إن "النقد الأدبي" كجنس ناضج من أجناس الدراسات الأدبية، هو المرحلة التي عبرت دوما على مرحلة اكتمال الإنجاز الأدبي في مرحلة ما. وذا فهو يشبه إلى حد كبير عمل الفلسفة حسب تحديد فيلسوف ألمانيا الكبير فريدريك جورج (1770-1831، بما هو عمل تقييمي يأتي عندما يرخي Hegel) ولهم هيجل الليل سدوله، وعندما يكتمل بناء الواقع الأدبي، اذ عبارات حدد مفهوم وإن Principes de la philosophie du droit وطبيعة الفلسفة في مؤلفه أردنا التأصيل لهذا الجنس الأدبي لأحققنا الكتاب المهم جدا الذي ألفه أرسطو

أو " في فن 322-385 La Poétique ق - م (المعروف بالبوطيقا Aristotele) الشعر"، وهو كتاب مرجعي أساسي في الدراسات النقدية الأدبية والفنية. فيه حدد أرسطو الأجناس الأدبية الإغريقية وأصدر أحكاما وصفية وقيمة دون " تمجيد ولا ازدراء". مما يدل على أن النقد الأدبي هو في الأساس دراسة موضوعية ملتزمة

¹- هيجل: أصول فلسفة الحق، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، إيلد الاول، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة،

بأصول المنهج العلمي المتميزة بالانضباط وتعليق كل الاحكام المسبقة حول الظاهرة الادبية المدروسة لتحقيق الانطلاقة الصحيحة والبدايات الحقيقية Edmund على حد توصيف فيلسوف الظواهرية الألماني إدmond هوسرل (1859-1938) الذي قال بأن التفكير الأصيل هو بمثابة علم الأصول، Husserl (أي العلم الذي يهتم بما هو جذري¹.

من المسلمات الأساسية لعلم الاستشراق، هو التمييز بين الشرق والغرب تمييز واضحاً. وهذا ما يتيح لصاحب الثقافة الغربية أن يعتبر نفسه " ذاتا دراسة " غربية لها مكتسبات ومنطلقات محددة، دراسة لموضوع مغاير عنه. يقول أحد المفكرين الشرقيين محددًا الترسيمات التمييزية على أساس أن " تاريخ الفكر في الغرب - إلا أقله - هو تاريخ العقل النظري. وتاريخ الفكر في الشرق - إلا أقله - هو تاريخ الإدراك الصوفي والحاسة الجمالية²". مما يدل على الاحتكام إلى المعطيات الجغرافية في تقرير الخصائص الحضارية والبنى الذهنية والعلمية للشعوب. وهذه المسألة ليست وليدة اليوم، بل تشكل النظرية الأرسطية حول ما يسمى "بالكيوف الطبيعية" اللبنة الأساسية ونقطة بدأ التمييز بين القدرات الذهنية والاستعدادات النفسية لشعوب الشرق التي تم استشراقها وشعوب الغرب التي يسعى البعض إلى استغراب يقول المعلم الأول في البوليطيقي محددًا ذلك " :

فالأمم المقيمة في الأقاليم الباردة، والشعوب القاطنة في أوروبا، كلها إقدام وشجاعة؛ ولكنها ناقصة الحجي متأخرة في الصناعة. ولذا لا تفتأ شعوبا أكثر ولعا بالحرية من سواها، ولكنها خالية من النظام السياسي عاجزة عن السيطرة على متاخميها. أما

¹ - ادmond هوسرل: الفلسفة علما دقيقا، ترجمة محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى،

2002 ، فقرة 340 ، ص103

² - زكي نجيب محمود: الشرق الفنان، دار القلم، القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ، الفقرة - 16 ص119

الشعوب الآسيوية فهي شعوب ثقابة الذهن تحذق الفنون والصنائع، ولكنها عارية من الثبات ورباطة الجأش. ولذا لا تبرح خانعة مستترقة.

وأما الشعب الإغريقي فلما شغل موقع وسطا من الأقاليم، اشترك أيضا في صفات سكا؛ إذ أنه شعب مقدم متوقد الفؤاد¹. "وإن كان أرسطو قد أقر في بداية هذا الكتاب تقرير الشعراء بأن اليونان بالطبع هم سادة الأعاجم والبرابرة بالكامل، مما لا يتفق معه الجميع، إلا تأثير الوسط الفيزيائي في تشكل الإنسان والحضارة والقوانين والنظم، من المسائل التي طورها وأخذ الكثير من المفكرين 1406م (في - في الشرق والغرب، وتقصد على سبيل التمثيل ابن خلدون 1332) المقدمة المخصصة لدراسة " المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان (1689- Montesquieu البشر والكثير من أحوالهم". وكذلك مونتيسكيو (1755 في أحد الفصول المعنونة استفهاميا ب " كيفتكون لقوانين الرق المترلي صلة بطبيعة الإقليم²".

لكن التمييز بين الشرق والغرب، كان من الناحية العلمية والبحثية لصالح الغرب. لأنه بفضل سبقه الحضاري - ونحن لا منا عوامل هذا السبق في هذا المقام - استطاع أن يأخذ مقام الدارس، في مقابل تحول الشرق إلى " موضوع مدرّوس". واهتمام

¹- أرسطوطاليس: في السياسة، ترجمة أوغسطينس بربرارة البولسي، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت،

30 ، ص - 20. 25. 371 الطبعة الثانية، 1980 ، ب1327

²- للتوسيع والاستزادة في هذه المسألة يرجى التوجه إلى الكتب التالية:

-ابن خلدون: المقدمة، ضبط وشرح وتقديم محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية،

1998 ، المقدمة الثالثة والرابعة والخامسة، ص85

- Montesquieu : de l'esprit des lois, Tome I, Edition E N A G, Alger,

1990, livre seizième : comment les lois de l'esclavage domestique

ont du rapport avec la nature du climat, pp 299-300.

الاستشراق بالثقافة أهل الشرق بالإجمال والعرب على وجه التخصيص بدأ من المدخل اللساني والأدبي، على اعتبار انه المدخل الضروري للولوج إلى باقي الموضوعات مثل الفلسفة والدين... الخ. يقول أحمد سمايلوفيتش مبينا اهتمام الاستشراق باللغة العربية وأد " :حرص على دراسة كل ما يتصل (أي اللغة (من قريب أو بعيد، فبحث في فقهها، وأصوا، ونحوها وصرفها، وأصولها ومعاجمها، وأطوارها وغزارا، ومادا وفلسفتها، وعلاقتها باللغات الأخرى، وخاصة اللغات السامية، ومميزا، وعناصرها وتاريخها، ونقوشها وكل ما أنتجته هذه اللغة حتى يبدو كأنه قد صب اهتماماته عليها، وذلك لصلتها الوثيقة بالإسلام والقرآن والحديث والشريعة على حد سواء (...).اهتم بكل ما 200 يتعلق به (الأدب العربي (، حيث درس تاريخه، وتطوره، وقيمته وأصالته، وعصوره، وضته، وتأخره، وازدهاره، وانحطاطه، وانتحاله، وسرقاته، وتأثره وتأثيره، وأعلامه، وشعرائه، وكتابه، وقد كانت عنايته به أكثر وأشد شغفا، وأوسع انتشارا، وأصعب دراسة، لأ محاولة لفهم الشخصية العربية، والإحاطة من كل جوانبها"¹.

ثانيا - طه حسين وأغراضه:

ولئن كان السبق التاريخي لدراسة التراث العربي والإسلامي على السواء بما هو تراث شرقي، للدراسين المستشرقين. فإن النهضة العربية الحديثة بعد حملة نابليون 1801، قد انطلقت من تلك الدراسات التي أنجزها أساتذة - على مصر 1798 مختصين من الجامعات الغربية الفرنسية والألمانية والإنجليزية على وجه التخصيص. على اعتبار ان صدمة الحداثة تنجت على اتصال العرب بالغرب من خلال البعثات العلمية التي فتحت المشهد الثقافي الحداثي العربي بداية من التجربة (1873-المصرية . ويعتبر كتاب الدكتور الأزهرى " رافعة الطهطاوي 1801)

1- أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 184

التلخيص الأهم لهذه التجربة التي انبهر فيها العالم والعالم الشرقي أمام مدينة عريقة وقوية الأسس. يقول معترفاً بالبنون الشاسع بين الشرق والغرب متجسداً في التجربة الفرنسية " :ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن في غاية البراعة في العلوم الحكيمة واعلاها في التبحر. من ذلك بلاد الانجليز والفرنسيس والنمسا، فان حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كأرسطوطاليس، وأفلاطون، وبقرات، وامثالهم، واتقنوا الرياضيات والطبيعات والالهيات وما وراء الطبيعة اشد اتقان (...).واعلم أن مدينة باريس هي أعظم مدن الإفرنج التي يرحل اليها الغرباء لتعلم العلوم، خصوصا العوم الطبية ... الجراحة والتشريح وفن الفيسيولوجيا"¹.

والمسألة التي لا نوافق فيها تقرير الطهطاوي هي تأكيده على تفوق العرب في معرفتهم بلغتهم، فهو عندما يقول بأن " الافرنج حكموا بأن علماء الإسلام انما يعرفون شريعتهم ولسام، يعني ما يتعلق باللغة العربية، ولكن يعترفون لنا بأننا كنا أساتذة أم في سائر العلوم، وبقدمنا عليهم، أوليس أن المتأخر يعترف من فضائله، ويهتدي بدلالته"²... فإنه يلغي حقيقة تاريخية لا يمكن انكارها أصلاً، وهي أن الغرب ذام قد استطاعوا معرفة تاريخ اللغة العربية وآدابها قبل العرب ذام. وما أدل على ذلك إلا تتلمذ كبار علماء اللغة العربية على أيدي المستشرقين ذام. لذا فإن أخص ما ينسب للعرب وهو العلوم اللغوية والآداب، قد تفقه فيه الغرب أكثر من أهل الديار لأم عمدوا إلى دراسات متخصصة ومناهج منتجة.

ويعتبر الدكتور طه حسين (1889) العلم من أوروبا وبالتحديد فرنسا. لكن حالة طه حسين حسب رواية أحد تلامذته تختلف عن بقية الحالات، يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي محمداً الحالة: عندما جاء طه حسين إلى فرنسا كان قد حصل على

¹- رفاعة رافع الطهطاوي: تخلص الإبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بليون باريس، المؤسسة الوطنية

للفنون المطبعية، الجزائر العاصمة، 1991، المقالة الأولى، ص. 26 والمقالة الثالثة، ص183

²- المرجع نفسه، المقدمة، الفقرة 1، ص11

الدكتوراه من الجامعة المصرية. لم يكن مجرد دارس مبتدئ (...). طه حسين كان رائداً ومصالحاً ثائراً لم يكن بوسعها أن يكون غير ذلك حتى ولو يسافر إلى فرنسا. بمعنى أن فرنسا لم تضيف إلى استعداداته المتوقدة شيئاً... لكن (تعلق طه حسين بفرنسا وافتتانه بالفكر الفرنسي عموماً قد جنى على موضوعيته العلمية، ففي أحكامه على هذا الفكر – أي الفرنسي - كنت أشعر أنه مجامل إلى حد كبير لزوجته الفرنسية. ففي مؤتمر المستشرقين سنة (1948 في باريس) بدأ طه حسين كلمته – وبدوي كان حاضراً وهو راوي هذه الحادثة – قائلاً: إنني أشعر بحب تجاه فرنسا¹.

وهذا التقرير، الذي يعتبر بمثابة شهادة موضوعية خاصة، لأن الدكتور بدوي لا يعرف [2]ملة على الإطلاق، تتعارض مع تقارير وتقديرات الأغلبية من الدارسين لفكر طه حسين النقدي. إذ نجد الدكتور مصطفى محمود الذي قدم لأطروحة الدكتوراه التي حررها أحمد سمايلوفيتش يقول بأنطه حسين تأثر بمنهج "مارجوليوت" في حكمه على الشعر الجاهلي، ويثير الشكوك حول أصالة الشعر الجاهلي. ويواصل أحمد سمايلوفيتش قوله " :يبدأ طه حسين (سقراط العرب) دراسته (في الشعر الجاهلي (بسيب من الشك لا يكاد يوجد في علومنا وخاصة في الأدب، ويثور على أوضاع اللغة التي تدرس في مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا وينقد مدارسنا البلاغة زاعماً بالية لا تقدم ولا تؤخر ويبدو أنه نسي أن هذه العلوم والآداب والفنون التي غذى نفسه كان لها أكبر الأثر في تكوينه ورفعته وهي التي جعلته يتناول هذا التطاول وينتقد الوضع ويثور حتى على المقدسات.

ويبدو أنه لم يدر أن العلماء والنقاد قبله قد شكوا كما بينا ولكن كانوا في شكهم هذا على حق لا على باطل، ونظروا إلى الشعر العربي من خلال مقياس العدالة والانصاف لا مقياس الشك والبلبله والجري وراء مارجوليوت وغيره من الطاعنين في الادب

¹- سعيد اللاوندي : عبد الرحمن بدوي – فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام، مركز الحضارة العربية،

124- القاهرة، الطبعة الأولى، 2001 ، ص123

العربي ولا ندري من دفع بطله حسين ليكون خليفة في هذا الاتجاه وما يتسم به في محاولة الإصلاح جد هزيمة إذا قسناها بمحاولات الإصلاح التي سبقه إليها مصلحون بناؤون لا هدامون كالطهطاوي والأفغاني ومحمد عبدو وغيرهم¹.

والحقيقة أن أقوال المفكر اليوغسلافي - الأوروبي، تدل على التعامل الحذر مع الأطروحة التي أعلنها طه حسين في كتابه المخصص للنقد الأدبي وبالتحديد الشعر الجاهلي فهو، وإن أراد في تشبيهه طه حسين بسقراط أثينا أن يكرمه ويعلى من شأنه، إلا أن الحقيقة عكس ذلك، فهو يريد أن يبين التوجه " العدمي، والسلبى، وأيضا الهدامي "لفكر طه حسين. فقد حفظ لنا أفلاطون في نصه المشهور " Apologie de Socrate بأبولوجيا سقراطا لتوصيف الذي قدمه سقراط لنفسه تجاه شعب أثينا، باعتباره مزعجا ومثيلا للبلبل. يقول أفلاطون على لسان سقراط: إن جاز أن أسوق إليكم هذا التشبيه المضحك، لقلت إنني ضرب من الذباب الخبيث، أنزله الله على الأمة، التي هي بمثابة جواد نبيل عظيم ثقيل الحركة لضخامته، ولا بد له في حياته من حافز. أنا تلك الذبابة الخبيثة التي أرسلها الله إلى الأمة (...). نعم قد أكون مزعجكم كلما باغتمكم فأيقظكم من نعاسكم العميق². " فهل الأمة العربية تشبه ذلك الحضان الضخم الثقيل الذي ركن للنوم والأكل؟ إن كان الأمر كذلك - وهو تشبيه في تقديري الخاص متطابق بصورة كبيرة مع واقع العرب في زمننا الحالي - فإن طه حسين يكون بمثابة مجدد (1897 الذي أعلن (1905 - والأفغاني - 1839) حقيقي، يفوق تجديده عبدو (1849) واعترف بأن الباحثين المستشرقين) وكان يقصد

1- أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 385

2- أفلاطون: دفاع سقراط، ترجمة زكي نجيب محمود، مكتبة الأسرة، دون مكان، دون طبعة، 2001، ص

طبعاً أرست رينان¹ (ليس بمن ستهان ، مثلما يقرر الأغلبية من أساتذتنا، حيث يرموم بالتعصب والكرامية بجرة قلم سهلة .لكننا نلمس أقصى الأحكام الذاتية الخارجة تماما على التحديدات العلمية والمقاييس العقلية في قول أستاذ جامعة آل البيت الدكتور "يحي وهيب الجبوري "عندما قال بأن" :مقالة مارجليوث أول بحث منظم هاجم الشعر الجاهلي وأنكر وجوده، وقد تبعه ونفخ في أفكاره بعض) الأكد أنه لا يقصد إلا طه حسين (من استهواهم هذا النهج الذي ظاهره العلم وباطنه الكيد للعربية وكنا وأهلها) الضالين والمض للين والمض للين (كنت أول من ترجم مقالة مارجليوث ترجمة كاملة ونشر سنة 1977 في بيروت).ترجمها أيضا بدوي"نشأة الشعر العربي "ضمن كتاب دراسات المستشرقين سنة.1979² ففي هذه الأحكام نشر وكأنا أمام محاكم للنوايا وليس باحث أكاديمي يستند على الملاحظة والتفحص والمنطق.

ثالثا - من مرجوليوث إلى طه حسين:

D.S.Margoliouth (1858-من هو مرجوليوث ؟ دافيد سامويلمرجوليوث 1940 (له كتاب " محمد ونشأة الإسلام 1905 "، وكتاب الإسلام 1911 ، ونشر محاضرات حول " تطور الإسلام في بداياته . 1914 "لكن هذه الدراسات كانت تسرى فيها روح غير علمية ومنعصبة، مما جعلها تثير السخط عليه ليس فقط من عند المسلمين باعتبارهم معنيين بالقضية، بل وعند كثير من المستشرقين .ومع ذلك اختاره مع العلمي العربي في دمشق عضوا مراسلا عند نشأته. 1920 ولو أردنا أن نحدد إنجاز مرجوليوث، فإننا نقول أن فضله الحقيقي في نشراته الكثيرة، وعلى رأسها نشرته

1- أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر العاصمة، . 110 وأيضاً عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام، دار الكتاب اللبناني 1990 - ، ص 109 ومكتبة المدرسة، دون م، دون ط، دون س، ص259

2- يحي وهيب الجبوري: المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، -46. الطبعة الأولى، 1997 ، ص ص259

لكتاب " معجم الادباء " لياقوت، ولسائل أبي العلاء المعري، وترجمته لقسم كبير من تاريخ مسكويه "تجارب الأمم" 1920¹.. والملاحظ أن حكم عبد الرحمن بدوي يتفق مع حكم الدكتور يحيى وهيب الجبوري، وكذلك الدكتور أحمد سمايلوفيتش. وهذا ما يدفعنا إلى تحديد دقائق موقفه من الشعر الجاهلي وعلاقة ما قاله بكتاب الدكتور طه حسين في كتابه " في الشعر الجاهلي". نشر مرجوليوث بحثه " أصول الشعر العربي " الذي يعتبر مصدر فكرته حول الشعر الجاهلي سنة 1925، لكن بدايات اهتمامه بالموضوع كانت قديمة. فقد كان يحقق كتاب " إرشاد الأريب " المعروف " بمعجم الأدباء " لياقوت. ولاحظ ظاهرة مريبة تتمثل في غموض المعارف التي وصلت حول شخصية "حماد الرواية " و"خلف الأحمر " وكذلك تناقض أخبار رواة الشعر بين الوضاعين الناحلين والثقات العادلين. هذا التعارف في الروايات دفعه إلى التشكك في النظرية التقليدية التي اتفق عليها الجميع والتي سماها طه حسين رأي القدماء أو انصار القديم. يقول المستشرق بروكلمان معرفتنا للشعر الجاهلي " :جمع اللغويون في البصرة والكوفة ما بقي من الأشعار القديمة لمن بعدهم من الأجيال. جمعها " حماد الرواية " وسمها " المعلقات " للتعبير على نفاسة ما اختاره. وزعم المتأخرون سميت معلقات لأنها كانت معلقة على الكعبة لعلو قيمتها"². يقول مترجم مقالة مرجوليوث " :حين أصدر كتابه " 1905 لاحظ

" Mohammad and the Rise of Islam محمد وظهور الإسلام أن في لغة القرآن شبيها كبيرا من لغة الشعر الجاهلي، وما دام الشعر الجاهلي في نظره مصنوعا (أي موضوعا ومنحولا في أغلبه (في كثرته، وضع على مثال القرآن، فإنه لا يصح أن يقبل رأي العرب في الشعر الجاهلي (...)) قال أن الشعر الجاهلي قيل بعد القرآن وعلى

1- عبد الرحمن بدوي :موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993، ص 546

2- كارل بروكلمان :تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1983، ص 67. ويحيى وهيب الجبوري : المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، مرجع سابق، ص 48

نسقه¹. "إذن فإن المستشرق مرجيلوث قد قرر بأن الشعر الجاهلي موضوع بعد البعثة المحمدية، وهذا عكيس الاعتقاد السائد، بسبب ملاحظته لوجود " فلق " في الأحكام التي وصلت إلينا. والتناقض لا يمكن ان يسكت عليه كما سكت العرب ذوي التوجه التقليدي. والحقيقة أن التأمل في حجه يوحى بمنطق صارم وعقل نزيه من كل "خلفيات". وهذه التراثة العلمية الالتزام المنطقي، جعلت المسلمين يترعجون. ومن أهم حجج مرجوليوت:

- في الشعر الجاهلي نجد الكثير من القصص الذيذكر في القرآن، وهذا يبطل أسبقية الشعر تاريخيا على البعثة.

-الدليل اللغوي يتمثل في أن العرب لم يكن لهم لهجة واحدة أو موحدة، يقرر بروكلمان أن " اللغة العربية ورثت كل اللغات السامية الأخرى تقريبا (...) ويفرق في الجزيرة العربية نفسها، بين مجموعتين كبيرتين من اللهجات: العربية الجنوبية والعربية الشمالية (...) والرأي الذي كان منتشرا، حتى قبل وقت قصير، بأن البدو في شمالي الجزيرة العربية، كانوا قبل مجيء النبي (ص)، بعيدين عن أي حضارة - وهذا الرأي خطأ بالطبع، فهناك حيث الصحراء، وبلاد الحضارة الواقعة على حدودهم، لم يتخلص العرب من تأثير جيرام فيهم². فلغة العرب لم تكن موحدة إلا بعد القرآن، وهو حال الشعر الجاهلي الموحد. السؤال هو

كيف توحدت لغة الشعر الجاهلي ؟ فقد كان من المفروض أن تتعدد لغته، ووحدة لغة الشعر دليل على أنه وضع بعد القرآن.

هذا باختصار موقف المستشرق مرجوليوت الذي انتهى إلى أن الشعر الجاهلي وضع بعد البعثة، وهذا عكس الموقف السائد بأنه جاهلي، ونحن نعلم أن هذه التسمية (

1-- يحي وهيب الجبوري : المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، المرجع نفسه، ص49

2-- كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، 1957، ص

الجاهلية (هي في حقيقتها تسمية قرآنية .وبالتالي فإن أي محاولة للتشكيك في معناها وتاريخها ومكونا، هو تشكيك في حكم أطلقه القرآن، الكريم .ولئن كان مرجوليوت قد أصدر كتابه حول الشعر الجاهلي سنة 1925

فإن الدكتور طه حسين قد أصدر كتابه " في الشعر الجاهلي " سنة 1926 ، أي بعد سنة فقط من إصدار مرجوليت، وكتاب طه حسين في أصله مجموعة محاضرات ألقاها عندما كان أستاذا في الجامعة المصرية .وقد تنبأ عميد الأدب العربي بالسخط الذي سيلي نشر محاضراته، وبه افتتح كتابه .وأعلن صراحة منهجه المعتمد، ونحن نعلم جيدا أن العلم ما هو إلا محصلة المنهج أو الميتودوس.

وإذا فقد استجاب طه حسين لمنهج ديكارت المشهور، يقول في العنصر الثاني من الكتاب الأول " :سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة (...). أُريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء (...). الناس يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل خلوا تاما (...). هذا المنهج قد جدد العلم والفلسفة تجديدا¹. " ونحن ندرى جيدا أن الإنجاز الديكارتى الأصيل كان في حقيقته إنجازا منهجيا في الأساس، فهو الذي كان يقول حكمة عندما قال أنه ينبغي على المرء أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يفعل ذلك من غير منهج .فالمهم عند الإنسان ليس القدرات العقلية الخارقة، أو الذاكرة الحقاضة القوية، بل المهم فقط هو الاستعمال الجيد للمنهج، أي حسن التوظيف .فالقاعدة الأولى من منهج ديكارت في قيادة العقل قيادة حسنة والبحث عن الحقيقة في العلوم هي الشك ففي كل ما اكتسبناه من معارف لا تنسم بالوضوح والبداهة.

1- .طه حسين :في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، دون طه، دون س، ص23

يقولن القاعدة الأولى في مقالة الطريقة " :أني لا يجب أن أقبل شيئاً ما إلا إذا la premier était de ne recevoir jamais aucune chose pour vraie que je ne la connusse évidemment être من أجل التخلص من الرمال المتحركة والرمال الزائلة، والعثور على الصخر والصلصال، كتعبير عن اليقين الذي يأتي بعد الشك.

والحقيقة أن الدكتور طه حسين، قد طبق هذه القاعدة أحسن تطبيق، على اعتبار ان مشكلة الرواية في الشعر كما لاحظها المستشرق مرجوليت، وكما يلاحظها أي دارس موضوعي لظاهرة أدبية، تثير الشك أكثر مما تثير التقبل والاطمئنان .والنتيجة التي توصل إليها طه حسين بعد تطبيق القاعدة الديكارتية هي أن " الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي من شيء (...) الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء،

ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن (...) لا ينبغي أن يستشهد ذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله"².إذن وكما هو بين، فإن طه حسين لا ينكر وجود مرحلة تسمى المرحلة الجاهلية، بل يشك في الشعر المنسوب إلى هذه المرحلة .وشكك هذا مستند على علم اللغة بما هو العلم الذي قام على المقارنة بين ، ونحن على دراية بأن³ comparer les langues entre elles (1913 قد نشرتحوالي 1916

¹ - 2René Descartes : Discours de la méthode, GF Flammarion, Paris, 1966,Second partie, p47

² - طه حسين :في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص . 21 أو طه حسين :في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق - 65. محمد عبد الرحمن محمد"، دون م، دون س، الطبعة الثالثة، ص64

³ -Ferdinand De Saussure :cours de linguistique général, Editions ENAG, Alger,3éme édition,2004, p10

وبالتالي فقد انتفع - محاضرات دي سوسير (1857) منها كل الأدباء وعلماء اللغة. ومن الأدلة التي قدمها الدكتور طه حسين على أن الشعر الجاهلي منحول نجد:

- أن الشعر الجاهلي لم يقدم توصيفا دقيقا للحياة الدينية الوثنية في الجاهلية، فما هو السر؟ إما أن الجاهلي غير متدين وهذا محال، لأن التدين ظاهرة أنثربولوجية بعامة، أو تم تصفية الشعر الذي يتحدث عن الدين الجاهلي، وفي هذه الحالة يكون منحول وموضوع. يقول " : أوليس عجبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين! كلا! كانت قريش متدينة قوية الايمان بدينها¹."

- الشعر الجاهلي ورد موحدا، في حين أن القبائل العربية متكوترة اللهجات واللغات. وكما هو واضح، فإن هذه الوحدة تثير الشكوك أكثر مما تمهد للاطمئنان. وانتشار لغة واحدة في الشعر الجاهلي دليل على سيطرة لغة القرآن على بقية اللهجات الأخرى، مما يدل على أن الأغلبية من الشعر الجاهلي تم انتحاله وصياغته في مرحلة أفول الجاهلية². وفي هذه المسألة يتفق عالم اللغويات ومؤرخها "إسرائيل ولفنستون" مدرس اللغات السامية في الجامعة المصرية، والذي أهدي كتابه حول تاريخ اللغات السامية إلى الدكتور طه حسين الذي بدوره كان يشغل منصب رئيس قسم اللغة العربية واللغات السامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية.

نتيجة تأويلية:

ها قد قدمنا باحتضار موقف الدكتور طه حسين من الشعر الجاهلي، مقرونا مع النتائج التي توصل إليها المستشرق مارجيليوث. فماذا نلاحظ؟ ما الناتج من كل هذا؟ كيف نتجاوز التأويلات التي تعبر عن رد فعل الضعف؟ ونقصد طبعا التأويل

1- طه حسين: في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص31

2- إسرائيل ولفنستون: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر، الطبعة الأولى، 1929، ص196 وأيضا طه حسين، في الشعر الجاهلي، . وكارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، مرجع سابق، ص45

المعهد في اعتبار الدكتور طه حسين من أذيال الاستشراق الحاقده على الإسلام والعرب، من أمثال أحمد سمايلوفيتش، ويحي وهيب الجبوري، وآخرون كثر لا يسع المكان لذكر أسمائهم.

أولا نحن نوافق كل من يقول بأن هناك تشابه بين نتائج الاستشراق في دراسة الشعر الجاهلي، والنتائج التي توصل إليها الدكتور طه حسين في كتابه ث في الشعر الجاهلي "و" في الأدب الجاهلي. "لكن هذا التشابه لا يجب أن يؤول على أن الاستشراق يهدف إلى الإساءة للقرآن وتشويه اللغة العربية، لأن معظم علماء الشرق قد تسلحوا بالروح العلمي وتقيدوا بأسس البحث المنهجي. والدكتور طه حسين بوصفه ناقدا أدبيا عمل على دراسة التراث العربي الإسلامي بذهنية منطقية وعقلية لا يشوالتقليد والتكرار غير المعقول. وتوافق نتائج طه حسين مع رجالات الاستشراق، يدل فيما يدل على " وحدة الموقف العلمي. "لأن من بين unanimité¹. مميزات العلم هو التأسيس لتراكمات وبلوغ نتائج اجماعية لكن وكما هو ملاحظ، فإن أصحاب التوجه التريثي والتقليدي يرفض اعتبار الشعر الجاهلي موضوعا لدراسة علمية. بل على العكس يعليه فوق التاريخ والنقد والاستباحت، يقول أحدهم " ليس الشعر الجاهلي فنا من الفنون الادبية وحسب، بل هو زاد العربية ومادا، عليه قامت علوم اللغة وبه فسر القرآن الكريم، وبفضله قوم اللسان العربي، وبذلك فالحفاظ على هذا الشعر هو حفاظ على اللغة العربية وعلى كتاب الله الذي حفظ اللغة العربية وحددها وجعلها باقية راسخة موحدة، وهي أقدم لغات العالم التي وصلت كاملة متماسكة يجتمع عليها Anti-أهلها رغم تفرق أهوائهم وأمصارهم²". والأدلجة بما هي فعل مضاد للعلمية مسألة واضحة للعيان في هذا القول، لأن التركيز كان على scientifique مقولات عرقية وسياسية وتوحيدية، بدل توظيف مقولات العلمية والتاريخية والموضوعية.

¹ - 1Karl Jaspers : Introduction à la philosophie, traduit par Jeanne HERSCH, Librairie PLON, Paris, P 6.

² - - 6. يحي وهيب الجبوري : المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، مرجع سابق، ص 4-6

سنقول أيضا بأن معارضة النتائج العلمية المنجزة عن الدراسة الجادة المعقولة للتراث، هو ضرب من إرادة القوة السقيمة المريضة. وتبرير ذلك أن الإنسان مجبول على الاستقواء أو ما يسميه الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (1844)

Friedrich Nietzsche (1900) *La volonté de puissance*. بإرادة القوة

فإرادة القوة هو الفعل النهائي للكل، وما فكرنا وعلمنا إلا وسيلة لبلوغ الاستقواء¹. وما يفهم من القوة أوسع بكثير مما يعتقد، لا تدل فقط على الاستعمار المادي العسكري، بل أيضا على فرض الهيمنة العلمية. وإذا المدلول فإن الاستشراق هو فائض قوة علمية صدر من طرف الأمم الأوروبية المتقدمة.

والرد المتعصب من طرف أبناء الحضارة الشرقية) أي المستغربين (لا يمثل إلا إرادة القوة وهي في حالة مرض وضعف ووهن. والمراهنة دوما على التروع الاعتقادي ولإيماني لدى الإنسان، مثلما يعمل أصحاب الفكر التقليدي، لا يؤدي إلى النتائج المرجوة إلا بصورة مؤقتة. لأنه إذا كان الإنسان يتقبل الأمور اعتقاديا دون استجلاء، فإن تراكم هذه الإقبالات يؤدي في النهاية إلى الإيمان دفعة واحدة، وهنا تبرز العدمية بما هي عدم إيمان مطلق بالقيم التقليدية. فحقيقة الإنسان أنه حيوان شأنه أن يجعل ويبجل العالم، ولكنه غاب عنه أنه إلى جانب

هذه الحيوان المقدس والمبجل، فإنه شأنه أن يرتاب ويشك، أن بنظر إلى العالم بعين الريبة².

لا يجب أن تفهم هذه الملاحظة على دعوة للركون إلى نتائج المستشرقين رغم أن الواقع العلمي يثبت أننا في هذه الوضعية إن إراديا أو قسريا - ، بل تدل على ضرورة الركون إلى نتائج العلم. وجعل الإنسان العربي - الإسلامي وتاريخه ولغته ومعتقده،

¹-Friedrich Nietzsche : *La volonté de puissance*, Tome I, traduit par Geneviève Bianquis, éditions Gallimard, 1995, paragraphe 19, p 224.

²- فريدريك نيتشه: جينالوجيا الأخلاق، ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006، فقرة 68-66، ص 66-68.

موضوعات لدراسة علمية نقوم² نحن، بدل أن نكلف غيرنا هذه المهمة الكبيرة. إننا ندعو إلى ضرورة علمنة) بمعنى تناول المسائل علميا (بدل أدلجة) تناول المسائل إيديولوجيا (التاريخ الإسلامي في كل جوانبه، وجعل موضوع اللغة العربية شأنًا علميا خالصا، لأن علم اللغة مثلما استنتج ذلك دي سوسير في آخر جملة من كتابه المهم " : إن الهدف الحقيقي والوحيد للألسنية هو . La linguistique a pour unique et véritable objet la langue unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et ونحن نفهم جيدا ما مدلول هذه العبارة التي تجعل¹ "pour elle-même" الدراسات اللغوية مستقلة عن بقية الاعتبارات.

سنختتم هذه المقالة بشهادة أهم من دعا إلى الدراسة العلمية للتاريخ والتراث الإسلامي دون أي وجل أو خوف، وتقصد طبعا الأستاذ محمد أركون) توفي (2010 الذي عمد إلى تقريض مساهمات طه حسين نظرا لأصالتها البحثية أولا، ونظرا أيضا لآفتحت طريق التحديث الفكري العربي، لكنه تأسف لكونه وحيدا في هذه المعركة الشرسة ضد الأدلجة والتبسيط والاختزال الذي أصبح من عادات الإنسان والمثقف العربي الحديث. فقد كاد أن يخرجنا طه حسين من قمم الذاتية والأسطورة بما هي آلية توهيمية تسكن العرب " قصرا إيديولوجيا فخما² ويضعنا على سكة العلمية والوعي التاريخي، لكن مواجهة العامة ورجال القانون، وعدم وجود أنصار أقوياء أمامه، حل دون ذلك.

وكلام الختام، هو أن الأدب العربي الحديث في دراساته النقدية لم ينفصل يوما عن الدراسات الاستشراقية، ولا يمكن أن ينفصل. وبدل الأحكام التقديحية والتنفيرية،

¹ - Ferdinand De Saussure : cours de linguistique général, Op.cit, p376.

² - محمد أركون: الفكر الإسلامي - نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1998 .
، السؤال 17 ، ص146

يجب الإقدام بكل روح علمية والانتفاع من نتائج الدراسات التي انجزها علماء غربيين
أفذاذ في مناهجهم وقدراتهم. لأن " عقد شراكة " بين الاستغراب والاستشراق له
خطوة أولية لسير علمي ناجح.

